وضوح الرؤية .. وعامّية الفكر(*)

لعل من أهم القضايا الجديرة بالتواصي على صعيد البناء الفكري: ضرورة وضوح الرؤية عند المسلم، كيما تستبين أبعاد الأمور في هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم، والتبس الفكر المطروح بالأغراض القريبة أو البعيدة لأصحابه، وانداحت على أرض الواقع عناوين دعيَّة النسب لما تحتها من مضمونات، وأخذت كثير من المضمونات عناوين بعيدة عن مدلولها ومحتواها. ومن يدري!! أهي المصادفة جعلتها كذلك؟! أم أن ذلك قد كان لحاجة في النفس توجه الفكرة والأسلوب؟.. دعاوى يجفوها الواقع، وأوهام تلبس لبوس الحقائق، ودنيا تموج بذلك كله.. والليالي مثقلات يلدن كل جديد.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن وضوح الرؤية يجعل المسلم على بينة من أمره فيما يتعلق بالفكر الإسلامي نفسه، معرفة بحدوده وأبعاده، وإدراكاً لأصوله ومنطلقاته، وعوامل التأثير والتأثر وما يترتب على ذلك، كما يقفه على الحقيقة في ما يتعلق بالأفكار الأخرى، وما يكون هنالك من التقاء أو افتراق في بعض النقاط.. وإنما يتم ذلك حين يكون الانطلاق من قواعد فكرنا ومفهوماته، ثم تبين ما عداه من خلال مدلولاته ومؤشراته، لما أنه فكر متميز يرتبط بعقيدة لابد أن تكون - بما ينبثق عنها من نظم - هي الموجه لمساره

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة السابعة عشرة، جمادى الأولى ١٣٩٦هـ، أيار ١٩٧٦م.

اليوم كما كانت في الماضي. وحين نستهدي بهذا المحور من الحركة الفكرية نكون أقرب إلى الدقة ـ دائماً ـ في إعطاء القيم للواقع في الأعمال، والأشخاص الذين يمارسون تلك الأعمال، وفي الحوادث التي تطرح نفسها في دنيا عالمنا الكبير.

وهكذا يجعل وضوح الرؤية صاحبه في مأمن مما يقع به أكثر عوام الفكر المستنير، والمحاكمة السليمة للأمور، وهؤلاء ـ وهذا ما يؤسف له ـ أكثر عدداً من عوام القراءة والكتابة، وقد يكونون أشد خطراً على الأمة من الجاهل البين الجهل؛ لأن هذا اللون من العامية أو الأمية في المحاكمة، واستنباط الحقيقة من محتوى الوقائع وربط الجزئيات بالكليات، دونما غفلة عن التاريخ والوقائع بذاكرة مثقوبة، ولا تأثر بالضجيج أو مثار النقع المصطنع، من الأسلحة الفتاكة التي تصيب الأمة في الصميم.

ولو رحنا نتلمس المنهج الرباني، لوجدناه واضحاً في هذا التوجه؛ ففي القرآن الكريم صفحات وصفحات من تبيان حال المنافقين، والكفار، وأهل الكتاب عامة، واليهود منهم بخاصة. ثم من يسلك تلك السبل، والدعوة إلى العبرة بصنيعهم، وعدم الغفلة عن طباعهم وخلائقهم، وكمال التنبه إلى أن أعمالهم وتصرفاتهم انعكاس طبيعي لما هم عليه انحرافاً في العقيدة والخلق، وحقداً على الإسلام وأهله، أو عداوة للحق وأهله في كل زمان ومكان. لذا فمن الخير عدم الاغترار بالعناوين، والنظر إلى حقائق الأمور، وليس إلى الأغشية المموهة، أو الأقنعة الظاهرة التي يراد من وضعها ستر الحقائق التي تكمن وراءها.

وهكذا كان المنهج الرباني لهذه النقطة بحسبان، وتأكيد ذلك أن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بعد أن عرض لعدد من أخلاق اليهود ومكرهم، ومجافاتهم طريق الهدى، ومحاولاتهم التفلُّت من دين الله والشريعة التي يبلغهم أحكامها موسى ـ عليه السلام ـ، ناهيك عن تحريفهم الكلم عن مواضعه، وتبديل الكلام في التوراة ليكون وفق هواهم. نرى هذا الكتاب الكريم بعد أن عرض لذلك كله واضعاً يد المسلم على مكمن قضيتنا معهم في جوهرها، جاءت الآيات الكريمة تعتب على المسلمين طمعهم في أن يؤمن هؤلاء اليهود أو يتبعوا سبيل الرشاد، ذلكم قوله عز وجل ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾.

وللعقل أن يعمل عمله في متابعة الطريق الواعية من خلال هذا التنبيه على خلائق اليهود استدلالاً على وجوب أن يكون المسلمون على ذكر منها كيلا يطمعوا في إيمانهم.. وعلى ذلك فقس.

إن التاريخ ـ بحلقاته المتكاملة على تقلب العصور ـ مثقل بالحوادث التي منها ما كان بجانب الصف الإيماني، ومنها ما كان عوناً للكفر والضلال في مواجهة دعوة الله.. والقرآن بما نبه وأرشد، وبما ذكر بالماضين وما حصل لهم، وبما سرد وقائع حصلت للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مع أقوامهم، يريد لنا أن نعي.. ويريد لنا أن لا نقع في شرك الانفصام عن الماضي والإفادة مما حصل، والاعتبار بما وقع ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ** ﴾. ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ**

﴿عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾. كل ذلك لكيلا ننسى، لكيلا نؤخذ بالظواهر، بل نربط الجزئيات بالكليات، والتصرفات بأصل المنطلقات والسمات المميزة، ونمسك بنواحي القضايا من أصولها الأولى.

وفي ضوء هذه الحقيقة، يكون لزاماً على هذه الأمة اليوم أن تعمل على وضوح الرؤية للماضي والحاضر ومعطيات التاريخ في الحكم على الوثائق والأشخاص.

إن عامية الجهل بالتاريخ القريب أو البعيد، أو عدم القدرة على التذكر والنظر إلى المقدمات والنتائج.. ظاهرة من ظواهر المرض الذي يضرب بجرانه على هذه الأمة.. والرواد مسؤولون عن التوعية والدلالة على معالم الطريق.. لقد كان لهذه الأمة عبر تاريخها أعداءٌ ينطلقون من مخالفة العقيدة، أو التنافر الفكري، أو الحسد والبغضاء وكانت لهم مواقف.. ومواقف.. وقد تختلف الأسماء ولكن المسمى واحد.. ودائماً في قضايا العقيدة.. ما أشبه الليلة البارحة.

وأمام كثير من التناقضات ومظاهر الغفلة في محاكمة الأمور أو الحكم على الأعمال والأشخاص: يقف المرء متسائلاً عن هذا الانفصام، عن دنيا التاريخ والماضي، مع أن الحاضر امتداد للماضي والمستقبل تطل تباشيره من خلال الحاضر في كثير من الأحيان.

إن الناقد البصير حين ينظر إلى وقائع تاريخنا في الزمان والمكان، وأعني بالمكان: المشرق، والمغرب في الأندلس وما حل على الأرض المسلمة عبر

القرون: يعود بزاد ـ أي زاد ـ يقوى معه على تفسير القضايا وسلامة التعليل، والقدرة على إعطاء الحكم البعيد عن الارتجال والتناقض. . أرأيت إلى الذين ابتليت بهم هذه الأمة من خارج حدودها كالتتار والمغول والصليبيين. . أو من داخل أرضها كاليهود وكل أولئك الذين كانوا طفيليات على جسمها مع دعوى أنهم من أبنائها وتربطهم بها آصرة العقيدة؟! أرأيت إلى هؤلاء وأولئك ممن ناصبنا العداء بعديد من الصور والأشكال؟!

كم نكون متمرغين في أوحال الخيال والغفلة حين نقرأ فننسى، أو نعبث بالحياة وتعبث بنا فلا نعي واقعاً، ولا نعتبر بماض، ولا نملك القدرة على رد القضايا إلى أصولها الأولى باستذكار تاريخها ومنطلقاتها ومواقفها من الإسلام قرباً أو بعداً، وعلى أي محور كان هذا القرب أو البعد.

إن من الغفلة الغافلة أن نتساءل عن العقرب لم تلدغ؟ لأن الجواب الطبيعي. . إنها تلدغ لأنها عقرب.

وفي كلام موصول بالرحلة مع المنهج القرآني، أوليس من أوليات المسائل أن نكون مع هذا المنهج حين يُميلنا إلى الحقيقة إذ نراه يخاطب اليهود في عصر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأعمال أجدادهم الأولين وكأنهم هم الذين فعلوا وفعلوا عبر التاريخ الطويل؟!

إن القرآن هو الذي قرر أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. . ولكن اليهود في عهد البعثة على ما بينهم وبين أجدادهم الماضين من البعد الزمني فإن الطينة واحدة. . والمكر واحد. . والعبث بدين الله واحد. . والحقد على الإنسان

والإنسانية واحد . . ناهيك عن التحايل والمكر وتحريف الكلم عن مواضعه، والرضا كل الرضا بصنيع أولئك الأجداد، وقل مثل ذلك في أحفاد غيرهم وغيرهم وبئس الأحفاد والأجداد.

إن هذا المنهج الذي يدفعنا إلى الحقيقة جدير أن يوقظ الغافل، ويبصر من كادت الغشاوة تطبق على عينيه.

يا أيها الرواد . . إنها الأمانة . . أمانة تبصير الأجيال بحقائق الأمور . . وتفتيح أعينهم على الإفادة من وقائع التاريخ . . وتربية ملكاتهم على القدرة والنفاذ في أن يربطوا الجزئيات بالكليات . . ويردوا التصرفات إلى أصولها الأولى . . كيما يتم لهم رؤية الطريق وسلامته. إنها أمانةُ أن نفيد من وسائل المعرفة التي كرم الله بها الإنسان . . فلقد نعى الله على أقوام أعطوا وسائل المعرفة ولم يحسنوا استخدامها، مع أن الله لم يعطهم إياها عبثاً، وإنما كان ذلك كيما تكون منتجة مثمرة، ولذلك اعتبرهم وكأنهم فاقدوها، لأنها معطلة لا تعمل كما أراد لها الله أن تعمل. وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾.

إننا لنعيذ أمتنا ـ وهي تعاني من التحديات ما تعاني، ويصيبها من الأعداء ما يصيبها ـ أن ينالها من الأذى الداخلي، في ذاتها وتصرفاتها أكثر مما ينالها من العدو الخارجي أو أعوانه. إننا لنعيذها من ذلك، لأنه الطامة الكبرى، ولأنها إن وقعت في هذا الخبال حق عليها ما حذرت منه الآية الكريمة. والله المستعان على كل حال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لعلهم يتضرعون (*)

بعيداً عن موضوع الأسباب والمسببات دون إهمال ما يجب . . بعيداً عن جو المقدمات والنتائج من غير سطحية واسترخاء . . بعيداً عن الكد الذهني، والنصب الفكري . . وعن التقصي القاتل هنا وهناك . . بعيداً عن الاستقراء المضني للأحداث الجارحة تهزأ بالعقل؛ لما أن الإنسان ليس منها بحسبان . . بعيداً عن ذلك كله . . ظاهره وباطنه . ما اتفق مضمونه مع عنوانه . . وما خالفت حقيقته شعاراته وعناوينه، يجد المرء نفسه ـ وقد أظلم الليل . . وضاقت الحيلة ـ مأخوذاً بقلبه إلى الحبل الذي لا تنفصم عراه، والطريق الذي لا يتيه سالكه . . طريق الاتصال بالله جل شأنه . . وصدق التضرع إليه . . وتمريغ النواصي بين يديه . . في لجأ خالص هو عنوانه العبودية السليمة من الشوائب . . واليقظة التي يمن الله بها على عباده المقربين .

لقد ذكرت ذلك ـ وبالضعف الإنسان حين ينسى ـ وأنا أقرأ قول الله تبارك وتعالى ـ خطاباً للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ والشدة الشادة تأخذ على الفئة المؤمنة منافذ الحياة: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

أرأيت إلى قوله: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾ كم يعطي وزناً للضراعة الخاشعة لله جلت قدرته . . وكم في ذلك من إيذان بأن هذا العبد الخاشع الضارع

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الرابع، السنة السابعة عشرة، جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ، تموز ١٩٧٦م.

الذي رق قلبه.. وأكتحلت بدموع الخشية عيناه.. قد رجع إلى الله موقناً بأن بيده مقاليد السماوات والأرض.. وأن هذا العبد قد انجلت الغشاوة عن عينيه وأبصر الطريق.

ثم: أرأيت إلى الحض على التضرع ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ وبيان أن قسوة القلب - وما أبعد القلب القاسي عن الله - حالت دون هؤلاء، ودون أن يدعوا ربهم خاشعين خاضعين فيكشف ما بهم من ضر. ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ألا ما أكثر الشياطين.. شياطين الإنس والجن.. وما أكثر الأساليب والطرائق التي يستخدمونها للتزيين.. وما أشدَّها ضرورة: أن يكون المؤمن في عصرنا الحاضر على بينة من أمره فيما هو من تزيين الشيطان. وما هو من هداية الرحمن، كيلا تزل قدمه.. فيكون - بتزيين الشيطان - من الأخسرين أعمالاً.. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وكيف لا تشتد ضرورة التبين.. والفتن تتحدى القلوب والنفوس.. تحاول أن تنفث فيها ما لا تصنعه خيوط الظلام.. كيما تنكت في قلب المؤمن تلك النكتة السوداء التي ما تزال به.. حتى يتحول - والعياذ بالله - عن طريق الجادة.. ويسقط في أحبولة من أحابيل الشيطان.. غنيمة باردة لأعداء الله والإنسان.. وإنما منجاته بعد التبين.. عمل صالح يشمل في مدلوله كل ساحات الممارسة والعمل. ولجأ صادق إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.. إلى الذي لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه [بادروا بالأعمال الصالحة..

فستكون فتن كقطع الليل المظلم.. يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً.. ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً.. يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا]. ولا ريب عندنا أن حسن الضراعة وصدق التوجه إلى الله.. من العمل.. لأنه عنوان عبودية وامتثال لما هو من أمره سبحانه.

هذا: وليس الأمر فيما عرضنا له في صدر الكلام مقتصراً على الآيتين اللتين استهل بهما الحديث.. لكنها آيات بينات ذوات عدد في رياض كتاب الله.. تطلع عليك بهديها وإشراقها، فإن أدركتك العناية، وتفتحت للقرآن بصيرتك. غمرك نورها.. وشفى قلبك عبيرها.. فاستلهمت الكلمات وما هو وراء الكلمات.. وسموت إلى ذلك العبق الزكي الذي كانت تنشره في أجواء أولئك الأبرار الذين رباهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عينه، وأحكم بهم مغاليق الأذى عن الإنسان.. وفتح بإيمانهم، وجهادهم، وحسن صلتهم بخالقهم.. أبواب الخير في التاريخ.

نعم تطالعك الآيات.. بالهدى يتمثل فيه ارتباط الحاضر بالماضي.. وتقفك على سنن الله الكونية في دنيا الخليقة.. وتعطيك مفاتيح التفسير القويم للتاريخ في ضوء هذه السنن.. وعلى هدي ما أراد الله في خلقه وتدبيره والغاية التي من أجلها خلق الإنسان.. علمه البيان.. حيث يتحرك الوجود منذ أوجد الله الحياة.. على محور رباني لا يزيح ولا يريم.

فمثلاً: بعد التذكير بعدد من الآيات الدالة على قدرته سبحانه، وأن بيده ملكوت السماوات والأرض وأنه القاهر فوق عباده.. يقول تباركت

أسماؤه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾: ولقد روى الإمام البخاري أنه لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآية. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [أعوذ بوجهك].

وفي سورة (المؤمنون) نقرأ قول الله جل وعز: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. وإذا كانت هذه الآية قد نزلت في مشركي قريش.. فما أحرانا أن نفيد من مدلولاتها ومراميها.. انظر إلى قوله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. أليس هذا دليل أن الابتداء هو تلك القوة الربانية التي تقود الناس إلى ربهم فيبسطون إليه أيديهم مستكينين ضارعين.. ما يترتب عليه استئناف مسيرة الخير ومناصبة العداء لكل شيطان سوَّل لهم وأملى لهم.

قال الحسن البصري: «إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء، فإنما هي نقمة، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميَّة. ولكن استقبلوها بالاستغفار وتضرعوا إلى الله. وقرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾» ولست في هذه العجالة بسبيل استقصاء ما ورد في هذا الباب.. لكنني بسبيل أن آخذ نفسي والقارئ الكريم بما هو بعض مدلولات العبودية

وصدق الإيمان، وأن الأمر بيد خالق القوى والقدر، الذي يمهل ولا يهمل، والذي يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. . فالكلام كثير عن الأخذ بالأسباب، والدعوة إلى العمل، وشحذ الطاقات الفكرية هنا وهناك. . لكن قليلاً ما نرجع البصر إلى ساحة الرحمن، حيث الدعوة الضارعة، والدمعة الخاشعة، حيث لغة القلوب المكلومة، والنفوس العطشى إلى ندى الرحمة وتفريج الكروب. . حيث ركعتان في جوف الليل تغيران وتبدلان. . حيث دعوة مظلوم يغفل الظالم عنها، ولا يغفل الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. . حيث يملك قول الله جلت قدرته: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ على المؤمنين ناصيته القول والعمل، ولا تجدهم إلا مصدقين بوعد الله، صابرين على ما أولاهم من نعمة ابتلائهم بالثغر الذي أقامهم عليه. . صنيع أولئك الذين كانوا رهبان الليل فرسان النهار.

وإذا كانت السنة المطهرة ترجمان القرآن وبيانه. . فإن سنن رسول الله القولية والعملية دلت على أن مع الأخذ بالأسباب، وإحكام الخطط، وإعمال العقل، والإفادة من العلم. . لا بد أن يكون المؤمن على المورد الأول من الصلة بالله الذي أنزل الكتاب وأوحى إلى عبده ونبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما أوحى.

لقد كانت حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكرم مثل للجميع بين هذه الأمور كلها، وأدعيته منذ الاستيقاظ حتى النوم: معروفة في مظانِّها ومشهورة، وضرعه عندما يشتد الكرب، ويحزب الأمر، غير خاف على

من له أدنى مسكة من الاطلاع كما حصل يوم الطائف . . وما حديث العريش في بدر وما اهتز له من الدعا والضرع ، والخضوع والتخشع بين يدي الله بغريب ولا منقطع . . مع الأخذ بكل مستطاع من وسائل القتال يومذاك . حتى عندما تتحدى الإنسان بعض الظواهر الكونية من خسوف أو كسوف ، أو اشتداد ريح أو غيرها . . كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلجأ إلى الصلاة والدعاء . وبالجملة كان إذا حزبه أمر لجأ إلى الدعاء . ومن هديه أخذ العلماء مشروعية القنوت في الصلاة أيام النوازل . ولم يكن ذلك بصارفه أبداً عن العمل وإحكام الوسائل بين يدي الغايات ، وتعبيد الطريق ببناء المؤمن القوي . . بأوسع معاني القوة ؛ ليكون أهلاً لحمل العبء وأداء رسالة الإسلام في العالمين . ألا إننا نمتثل أمراً لله في العمل ، ونمتثل أمر الله وأمر رسوله في اللجأ إليه ، وندعوه تضرعاً وخفية ، فأزمَّة الأمور بيده ، وسلطانه في العالمين هو السلطان ، لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره ، عليه توكلنا وإليه ننيب .

وأخيراً ـ وكم يستعصي القلم تحت انعكاس قطع الليل المظلم ، والحمد لله أن كان استعصاء لا استخذاء ـ فإني داع بما روي أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كان يدعو به :

اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك متشوقة ، إن أوحشتهم

الغربة آنسهم ذكرك . . وإن صُبَّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك . . علماً بأن أزمة الأمور بيدك، ومصادرها عن قضائك .

اللهم إن تهتُ عن مسألتي، أو عميتُ عن طلبتي، فدلني على مصالحي، وخذ بقلبي إلى مراشدي، فليس ذلك بنكر من هدايتك، ولا بدع من كفاياتك .

اللهم أحملني على عفوك، ولا تحملني على عدلك، ولله الأمر من قبل ومن بعد . . إنه نعم المولى ونعم النصير .

قبل أن آذن لكم (*)

في إدراك سليم لأبعاد المتاهة الضاربة باتساعها بين واقع المسلمين، وبين ما يجب أن تكون عليه الأمة وجوداً حقيقياً على صعيد الفرد والجماعة: يبدو دور المسلم الواعي في هذه الحقبة من الزمن ضرورة تمليها أمانة الدعوة، ويوجبها ما عاهد عليه الله ورسوله من العمل بالإسلام.

ولعل الخطوة الأولى في هذه السبيل: إنما تتمثل في حسن تصور ذلك الواقع الذي يلف الأمة بمتناقضاته، فيجعل من المسلم المتخلف إنساناً مزعزع الانتماء إلى عقيدة الأمة ورسالتها، الأمر الذي أثمر الإدمان المريع، على البعد عن دين الله وشريعته في جل ميادين الحياة.

وليست الإحاطة بواقع المسلمين - كما هو - والتعمق في أسبابه البعيدة والقريبة بمؤدية غرضها، دون أن يوضع في الحساب واقع أولئك الذين كان بيدهم - وما يزال في كثير من الاعتبارات - مقود الحياة بالنسبة إلينا، حين تخلينا عن مقومات وجودنا، وأصبحنا نتبارى في التقليد الأعمى معطين الأهمية الكبرى لهذا التقليد لما أنه - كما يملي الانهزام الداخلي - عنوان المدنية والانسياح في رحاب العلم الذي يحكم خطوطات الآخرين، نعم.. لابد أن يوضع ذلك في الحسبان لما صحب ذلك من تحول نفسي خطير، ولما رافقه من استخفاف بمقومات الأمة، ونظرات غافلة أو زائغة إلى كل ما يمت إلى منطلقاتها

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخامس والسادس، السنة السابعة عشرة، رجب وشعبان ١٣٩٦هـ، أيلول ١٩٧٦م.

وتاريخها بصلة، بحيث تفسر المنطلقات ووقائع التاريخ تفسيراً يمكِّن للضعف أن يستشري، وللوهم الواهم أن يتحول في النفوس إلى ما يشبه الحقيقة في نظر أولئك المتخاذلين. . الذين باؤوا بإثم ما صنعوا، وكانوا فيه من الخاسرين.

ومن عجب أن هؤلاء وأولئك يطرحون قيمهم التي يريدون، ثم يحملوننا على الاحتكام إليها. . فما دام القانون في تلك القضية الاجتماعية أو السياسية كذا. . فليكن حكم الواقعة الفلانية من تاريخنا كذا، وليكن تفسيرها كيت. . تطرح القيمة ـ وهي من عندهم ومن وضعهم ـ وما دام الأمر كذلك فهي من المسلمات، ولم يبق إلا التطبيق ليخرجوا على الناس بالحكم! ولِمَ لا؟ فإنهم السادة في التاريخ. . والسادة في الحضارة!! ولما كان العلم التقني في خدمتهم ـ وإن كان قد استعبدهم ـ فهم أصحاب الحق في أن يقولوا. وما على الآخرين إلا السمع والطاعة والتسلم.

ولقد انتقل هذا المنطق المنحرف إلى أعوانهم وذويهم من المنتمين زوراً إلى هذه الأمة، حتى رأى العالم الإسلامي من التقلبات والتناقضات واللعب على الحقائق العجب العجاب. ولكن ألم يرسم فرعون للطغيان وأهله في الماضي الخطوط الكبرى لهذا المنهج الظالم حين قال: «أليْسَ لي مُلكُ مصْرَ وهذه الأنْهارُ تجرْي منْ تحتي» وترتب على ذلك في نفسه ـ بناء على ما له من القوة والأيد ـ أنه مؤهل للتأله واستعباد الآخرين فأعلنها بكل وضوح بعيد عن الاستحياء ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. وحين آمن سحرته بموسى كان من منطقه أنهم خالفوا الحقائق كلها بإيمانهم بموسى قبل أن يأذن

لهم بالإيمان . . حتى الإيمان وهو التصديق القلبي يجب أن يكون بإذن من فرعون، ذلك قوله: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

إن دور المسلم الذي يتمثل في العمل على ردم تلك الفجوة الصارخة بين واقع المسلمين، وبين ما يجب أن يكونوا عليه، والعمل المنهجي الدائب على صعيد التغيير . . استجابة لنداء الله وهدي رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما يأخذ حجمه الطبيعي، وسلامة منهجيته: حين يتم لهذا المسلم الواعي ـ كما قلنا ـ إدراك الواقع الإسلامي، وما عليه هؤلاء الذين أسلمنا إليهم زمام قيادتنا خلال هذا القرن من الزمان.

ولست بسبيل أن أبرهن على أن واقع هؤلاء، وما يتخبط فيه إنسانهم من شقاوة وبعد عن الطمأنينة، وما تعانيه الإنسانية من أذاهم حين سخروا العلم للهوى وإرواء حب السيطرة على الآخرين . . فلقد دل هذا الواقع على أن الشعارات التي طرحت ـ على اختلاف عناوينها ومؤشراتها ـ من أوائل هذا القرن أثبتت عدم جدواها، بل عدم صحتها، سواء فيما هو نظريات مطلقة مزعوم صلاحيتها للإنسان، أو فيما هو مجاف لدعوة الإسلام وحرب ظالمة عليه . . ولقد أصبحت هذه الدلالة حقيقة ماثلة نادى بها غير واحد من أبناء تلك الشعارات والنظريات، بل قد يكون هؤلاء أكثر عدداً من المنادين بها من بني جلدتنا ممن أصابهم الدوار وبهرتهم الأضواء . . نعم . . من بني جلدتنا نحن الذين اعتصرتنا الفتنة، وغل الأيدي عن العمل، والعقول عن التفكير: ظلام العاصفة وثغاء القطيع التائه هنا وهناك.

ألا إن الاستجابة الواعية لنداء الله في كتابه، ولهدي رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في سنته وسيرته، وللتاريخ يبنيه المخلصون من الرجال بالدم والعمل. . إن الاستجابة الواعية. . تقتضي المسلم المتمكن في إسلامه إيماناً، وسلامة تصور، واستقامة سلوك. . أن يبرهن على صدق انتمائه لعقيدة الأمة في صفائها، وارتباطه بكل ذلك البناء الرباني الذي قام عليها. . وأن يكون له من الوعي لمنهج الله الذي يحتكم إليه، وسلوكه المتوافق مع ذلك النهج: ما يمكنه من الخطوة السليمة الرائدة. . لأنه إنسان صاحب رسالة. . إنسان له قضية تتصدر كل القضايا المطروحة على طريقة هنا وهناك. والركام الظالم. . والعوائق المتجنية لا تزيده إلا إصراراً على ما يريد. . كل همه أن يلقى الله وقد أدى الأمانة، وصدق ما عاهد الله عليه. .

أقول هذا ونحن في شهر المعجزة الكبرى، شهر الإسراء والمعراج. . كي نستذكر أنه لأمر يريده الله جاء الحديث عن الإسراء والمعراج قرآناً يتلى إلى يوم الدين، لما أن الإسراء والمعراج معلم من معالم طريق هذه الأمة على صعيد الإيمان، والعبادة، والصبر على طريق الدعوة إلى الله. . فالإسراء والمعراج من دلائل النبوة، والبراهين الساطعة على صدق نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما يبلغ عن ربه عز وجل.

وكان في الإسراء والمعراج امتحان الإيمان واختبار التصديق، ووقف أبو بكر ـ بما أجاب المستهزئين ورؤوس الشرك ـ يشير إلى قافلة الإيمان: «من هنا الطريق».

وفي أعقاب عام الحزن وواقعة الطائف وما لقي رسول الله من ثقيف كان من الإسراء والمعراج عظيم التسلية والمواساة على طريق الدعوة من رب العالمين سبحانه. والمحور في حياة المؤمن عبودية صادقة لله عز وجل.. وهي أوضح ما تكون في الصلاة التي شاء الله أن تكون خمس مرات في اليوم والليلة، وأن تفترض ليلة العروج.

وإذا كان المسلم مدعواً لأن يأخذ دوره الحازم الجاد المنهجي، أداءً لرسالة الإسلام وتحقيقاً لإنسانية الإنسان، وإذا كانت معجزتا الإسراء والمعراج معْلماً من معالم البناء على ميدان الإيمان الصادق والحركة الواعية.. فإن الحديث عن الأقصى، وما هو مسرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما هو فيه من بلاء وحزن، متروك للوقائع التي يذوب لها القلب.. ولن يغسلها ويعفي على آثارها إلا دم المجاهد الزكي يهراق تحت راية لا إله إلا الله، صدقاً في المواطن، وشوقاً إلى لقاء الله، ورغبة في الاستشهاد الذي لا تحيا الأمة بدونه، ذلكم عهد الله إلى عباده المتقين ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ..**﴾. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كيما يتصل حبل الضياء من جديد (*)

كثيرة هي المناسبات والذكريات في تاريخ هذه الأمة، ولكن قليلة هي التأملات الصادقة التي تحمل إلى ساحة العمل.. والوقفات التي تتسم بالنفاذ وتفتح البصيرة وإنها لمطلبٌ كبير الأهمية في هذه المرحلة، التي تقف فيها أمتنا على عتبة يقظة منشودة، يحدو المسيرة فيها حادي لا إله إلا الله.. ويرافق القافلة قبس من نور النبوة يرسم المنهاج ويحدد معالم الطريق.

على سبيل المثال: نذكر قراءة وكتابة وتعليماً وخطابة وتوجيهاً وشعراً ونثراً.. معركة الفرقان ودلالتها العظيمة وآثارها الكبيرة الحجم في تاريخنا.. العميقة الأثر في طريق دعوتنا على صعيد الإقليمية والعالمية.. وما كانت به فيصلاً بين الحق والباطل على حلبة الصراع بينهما.. حيث تقف الجاهلية بوثنتيها وغطرستها في جانب، وتقف الدعوة الجديدة بتوحيدها وأخلاقيتها ـ على قلة في العدد والعدة ـ في جانب.. وكيف انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وغيرت وجه تاريخ الإنسان؛ كلما دعت الحاجة وتكررت المناسبة.. لكن شيئاً من الأثر الذي يفجر الطاقات.. ويبدل واقع الإنسان المسلم.. ويقذف بالروح المسلمة القادرة المعتزة بالله إلى ميدان التغيير.. هو الذي نفتقده في وجود هذه الأمة وكيانها.. حتى لنكاد نجزم أن حالة الانهزام النفسي تجعل صاحبها إنساناً

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة السابعة عشرة، رمضان ١٣٩٦هـ، أيلول ١٩٧٦م.

يسمع المسموعات واهناً مسترخياً، ويتلقى النذر وأخبار الذكريات التي تحرك الحجر الأصم: ضعيفاً مستخذياً.. يسمع ويتلقى كذلك، حتى كأن غواشي الأيام قد ضربت بكلكها على قلبه.. فأصبح معطل الحس.. عديم القدرة على تلبية النداء ينطلق من آيات الكتاب.. وقد كان هذا النداء القاعدة التي حملت عبء الدعوة، وحادي الأمة إلى الوعي والجهاد.. وحاملها إلى كل ساحات التضحية والفداء. وكل ميادين الاعتزاز الصادق بتلك الرسالة التي حملها محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى العالمين.. فكان جنده الأبرار في دنيا الناس رسل حضارة وأخلاق، ودعاة خير وفضيلة، وبناة مجد يقوم على الإيمان والحق وتكريم الإنسان..

ألا إن القرآن هو القرآن.. وإن سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي السيرة.. وإن ما حفل به تاريخنا في كل مجالات القدوة والتأسي على كل صعيد: ما يزال غضاً طرياً بين ظهرانينا في مصادره ومظانه وآثاره العملية هنا وهناك.. والنذر المجافية لدعوة الله تملأ السهل والجبل، ولكن المشكلة التي ينبغي أن يواجهها الرواد بمعرفة وأمانة: هي الإدراك العميق لهذا الواقع وبواعثه، والمؤشرات التي أورثت هذا الخمود والبرود في نفس المسلم.. حتى أصبح على الحال التي هو عليها.. وإن كانت الساحة لا تخلو من مجاهدين بررة.. وذلك كيما يتصل حبل الضياء مجدداً.. وكي تتفتح هذه النفس للنداء.. وتصيخ إلى النذير.. وتستجيب إلى دعوة الخير.. وعندها تكون قادرة على التغيير الذي هو مناط العبء في حياة المؤمن

بوصفه مؤمناً. وكأني بهذا الذي نشير إليه أمر له أكثر من وجه في هذا الباب.. فالذي يبدو أنه إذا لم يحصل تأثر وتأثير وانفعال وتفاعل بين المؤمن وبين تلك العوامل التي كنا بها خير أمة أخرجت للناس.. فمعنى ذلك أننا في تخلف مستمر من هذه الناحية بالرغم من الوعي الذي نلمسه على ساحة متسعة في دنيا المسلمين.. ذلك لأن الوقوف معناه الموت.. وما لم نخطُ الخطوة الأولى على الطريق المؤدية إلى الغاية.. فهناك تراجع وانهزام جديدان.. وليكن في حسابنا هنا مدلول قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾.

إنني ـ والأمل بنصر الله يراودني كما يراود كل مؤمن مصدق بالكتاب وبيانه من السنة ـ لا أنطلق ـ علم الله ـ من ساحة التشاؤم في هذا الباب.. ولكني أعرض واقعاً يقض مضاجع الذين يتحسسون آلام الأمة وآمالها.. ويثقل كواهل العاملين.. فالنذر الصارخة لا تحرك.. وآيات الله التي تتلى صباح مساء: لا تفتح لها القلوب لتؤثر وتغير.. والوقائع التي تكفي كل واحدة منها لتكون مفجراً لطاقات الأمة وإمكاناتها: لا تكاد تعمل عملها على صعيد الجماعة وإنما على صعيد هنا وهناك.. حتى كأن الأصل هو التثاقل إلى الأرض.

إنها الحقيقة التي تنطح برأسها جدار الخمود والجمود.. وهي حقيقة أصبحت من الوضوح بحيث تستحق من الرواد كثيراً من التبصر وكثيراً من التأمل.. كي يكون الدواء مناسباً للداء.. فلا تنحرف بهم الطريق فيحسبوا أن قضية الأمة ـ مثلاً ـ قضية عرض جديد لعلم كذا، أو إثارة نقاش حول علم كذا.

إنه لا تثريب علينا في مجال المعرفة أن نديم العطاء والبحث، بل ذلك أمر بالغ الأهمية، ولكن قضية الأمة هناك.. حيث الأسماع التي تكاد أن لا تسمع والأبصار التي تكاد أتبصر.. والقلوب التي تكاد أن لا تفقه.. وحيث نتج عن ذلك استبدال التماوت بالانفعال الصادق، والوهن والاستخذاء بالتأثر الفاعل الذي ينهض بصاحبه إلى مراتب الجهاد والكرامة.. وحيث كان من آثار تلك الجفوة تبدل القيم التي أصبح طريقها طريقاً لا يحرسه الإيمان والخلق.. وإنما يحرسه انحراف يلف كل التصرفات والممارسات.. في إخلاد إلى الأرض أين منه التطلع إلى الذرى.. وأين من عقابيله عطاء على طريق المعرفة والجهاد بلا حساب.

اللهم جبار السماوات والأرض.. أنت القادر على أن تهبنا عزيمة الرشد والثبات في الأمر.. وأن تفتح مغاليق القلوب.. وتزيل الغشاوة عن البصائر وأن تمدَّ العاملين في سبيل إعلاء كلمتك بعونك.. يبصرهم حقيقة الداء والدواء.. ويحملهم إلى ساحة المصابرة الصادقة وتحمل أعباء الطريق.. فالعون يا رحمن من عندك.. والقوة القاهرة من لدنك.. ربنا عليك توكلنا وإليك أتينا وإليك المصير.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

هل هي جزءٌ من معركة المصحف (*)

أية أخبار هذه التي تتخطى حدود الأرض المحتلة وتتجاوز الأسوار حتى تصل إلينا؟ وأية أحداث هذه التي تنم عنها هذه الأخبار.. صحيح أن الليالي حبالى دائماً بما يؤرق ويسهد، ويجعلك كأنك تبيت على حسك السعدان. فمن تخريب وتدمير، إلى إحراق وسلبٍ ونهب، إلى مزاحمة المسلمين في مسجد الخليل بحيث اغتصب اليهود بالقوة شطراً من المسجد، وأصبحوا يشركون المواطنين الأصلاء في مكان عبادتهم الذي ألفه آباؤهم وأجدادهم منذ قرون وقرون.. لكن الجديد في ذلك كله ـ وليت من يجب أن يسمعوا يسمعون ـ ذلك التطاول على كتاب الله بحيث امتدت الأيدي الآثمة فمزقت المصحف، وأهانت كلماته، وحرقت ما طالته بغياً وعدواناً.. ويبدو أن ذلك حصل أكثر من مرة وممن؟! من أولئك الذين اشتهروا في قومهم وذويهم باليهود المتدينين.. ألا لعنت يهود.. متدينها وغير متدينها.. فالكل في ميزان الحقيقة مباءة السوء في هذا العصر وفي كل عصر.

ولسنا نسوق الخبر هنا على الشكل الإعلامي، لكننا نسوقه على طريق العبرة والدرس، لعل ما يحرك الصخر الجلمود يحرك أولئك الذين أخذوا على أنفسهم أن يكونوا دون الجماد إحساساً بنكبة الأمة، ووعياً لحقيقة

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثامن، السنة السابعة عشرة، شوال ١٣٩٦هـ، تشرين الأول والثاني ١٩٧٦م.

الكوامن وراء تلك النكبة؛ كالذي حكاه الله عن اليهود في استغلاق قلوبهم دون كلمة الحق: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إنه ليس بدعاً أن يصنع اليهود ما صنعوا، وأن يرتبكوا من هذه المآثم ما ارتكبوا، فهم قتلة الأنبياء، وهم الذين حاولوا صلب المسيح ـ عليه السلام ـ لكن الله أنجاه منهم ورفعه إليه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، وهم الذين اتخذوا آيات الله هزواً، وكتموا ما أنزل الله، وحرفوا التوراة وبدلوها، واصطنعوا من عند أنفسهم هرطقات أسموها ـ ظلماً وعدواناً ـ كتاب الله الذي أنزله على موسى، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون.

واليهود.. هم اليهود.. هم الذين كشف الله في قرآنه عن خلائقهم، وفضح نيَّاتهم، وحدد مسالكهم، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما تنطوي عليه نفوسهم من الدخل والزيغ إلا ذكرها وأوضح مكمن الداء فيها.

واليهود هم الذين لنا معهم تاريخ طويل حافل بالمتناقضات، عامر بالأحداث التي تبين أمانتنا وغدرهم، وصدقنا وكذبهم، ووقوفنا عند العهد وخيانتهم، وحبنا للخير، وحرصهم على نقيضه، وهم الذين حاولوا غير مرة قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غيلة بسبُل كلها المكر والخديعة والمجافاة لإنسانية الإنسان. وعلى الخط المشترك معهم دارت معارك بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر.. ثم كان إجلاؤهم عن الجزيرة

العربية جلاء كان واحدة من القلائد المشرقة في تاريخ عمر بن الخطاب وجلائل أعماله ـ رضي الله عنه ـ.

أجل. إن أمر العدوان على المصحف من يهود ليس بدعاً ولا غريباً.. وكيف يكون بدعاً وغريباً.. وتلك ثوابت كما كشف عنها القرآن.. وذاك تاريخهم حيث عانينا منهم الصاب والعلقم.. وكل هذا قبل أن تمتد أظفار بغيهم لتنهش أرضنا، وتعدو على مقدساتنا، وتخرج أهلنا من أرضهم وديارهم.. حيث أعانهم على ذلك ضعفنا وتفرقنا في مرحلة جفوة صارخة للإسلام.. كما أعانتهم دول الاستعمار وأذنابها في حديث يذوب له القلب وتنفطر له الأكباد.. لما يحمل من أفكار تطفو على السطح.. وأعمال تجل عن ذكرها هذه الصفحات.

ولكن هل هذا الصنيع جزء من معركة المصحف؟ أجل.. إنه كذلك وليس قصد يهود تمزيق الورق الذي كتب عليه القرآن، لكنه ظاهرة الحقد على هذا الكتاب الذي يعلمون أنه هو حياتنا، وأن به كنا خير أمة أخرجت للناس، وأنه الكتاب الناظم لشؤون الدنيا والآخرة، فهو النور وهو الهدى، وهو الشفاء والضياء، وهو الذي أخرجنا الله به من ظلمات الجاهلية والضعف، إلى حيث استطعنا أن نواجه اليهود ونجليهم عن الجزيرة، كما واجهنا الروم وفارس، وأن تكون لنا الذاتية والأصالة، فرُحنا نعلم الدنيا ونبني للإنسانية معالم حضارة الإنسان.. بعد أن كنا مستذلين مستوردين نعيش على ما يجود به المستعلون المستكبرون.

ثم: أليس في إهانة المصحف إهانة لكل واحد من أبناء هذه الأمة؟ أوليس ذلك عنوان حرص اليهود على تمزيق الأمة، وقطع شرايين حياتها، وتحويلها عن منابع الخير والهدى في هذا القرآن؟.

إن اليهود ليسمعون قعقعة معاركهم مع الإسلام، حين ينظرون إلى القرآن. ويعشي أعينهم غبار تلك المسيرة الطويلة يوم أن أجلاهم عمر - رضي الله عنه - عن الجزيرة.. ويغشاهم من الغم ما يغشاهم حين يذكرون كيف أن هذا القرآن جلّى حقيقتهم للناس، وكشف عن المخبوء من نيّاتهم، وأظهر كل مستور من مكنون أنفسهم المريضة والعياذ بالله.. ولا أطيل في ذلك فالحديث ذو شجون وغصون.

غير أن الذي يكاد اللسان ينعقد عند الحديث عنه هو: أين نحن من هذا القرآن في هديه ونظامه وتوجيهه؟ أوليس واقع المسلمين اليوم دليلاً على ضعف صلتهم بهذا القرآن، وصدق انتمائهم إلى جيل القرآن الذي صنعته يدا محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه -.

إن استبدال المستورد بما جاء به القرآن، وما يصك آذان الزمن من مطارق تعمل على هدم البقية الباقية من صلة الأمة بكتابها: هو أشد وأنكى من تمزيق الورق وتحريقه.. وإنها بيدك لا بيد عمرو.

إن ما تصنعه يهود جدير - ورب هذا القرآن - أن يوقظ النفوس ويحرك المشاعر.. ويعطف أولئك الذين بيدهم مقاليد الأمة في عالمنا الكبير من أدناه إلى أقصاه.. أن يخلصوا أنفسهم لله من جديد، وأن ينصروا كتابه بالقلب

والعقل والخطة والعمل . . وأن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً ـ لا دخل فيها ولا زغل ـ من ذاك الذي يتوهمونه حضارة وهو بعد عن الله ، ويسمونه معرفة وهو حرب على القرآن ، ويدعونه قوة للأمة وهو مهانة لها وضعف .

ألا يا رُبَّ ضارة نافعة . . فلتصنع يهود ما تصنع . . فإن معركة المصحف معهم دائرة ، وقد بدأت من أول يوم وطئت فيه أقدام المهاجرين المجاهدين أرض المدينة . . وما يصنعونه اليوم في شتى صوره وألوانه : حلقة من حلقات تاريخهم الملطخ بالمكر والإثم والتآمر على إنسانية الإنسان . . ولكن الأهم في الموضوع : أن نكون على وعي لهذه المعركة في أبعادها ومراميها . . فنصيب من تلك العصابة مقتلاً ، وذلك بتجديد انتماء الأجيال إلى هذا القرآن انتماءً صادقاً واعياً . . يرفع صاحبه إلى منازل الأبرار المجاهدين . . لنعمل ـ وليت من بيدهم قدرة العمل كلَّها يسمعون ـ على تبصير أجيالنا بحقيقة معركة القرآن ، ونرسم معالم الطريق التي تصلنا مجدداً بجيل القرآن . . عقيدة ، ومعرفة ، وجهاداً ، وحسن تبصر بالأمور . . ووعي لطبيعة المرحلة التي تمر بها أمتنا في هذا المنعطف الموحش من دروب التاريخ .

وإذا كان الأمر كذلك . . فأية نائبة تلك التي تصيب الأمة حين تمزق كتابها بأيديها ، وتجفو مصدر هدايتها عن عمد وإصرار . . وأية داهية تلك التي تضع مقاتل هذه الأمة تحت وقع السلاح من أعدائها حين تجرد فلذات أكبادها من عناصر القدرة على المواجهة ، وتعمل على أن تشلها عن متابعة الطريق .

إن نظرات معكوسة إلى القرآن، وأفكاراً مهزوزة عن هدايته، وقدرته على ابتعاث الأمة من رقاد.. مظاهرةٌ للعدو وعون له على تحقيق أغراضه.. ولكن خاب فألهم.. فالأمة إن شاء الله إلى خير.. ومهما توالت النكبات.. فإن قبساً يضيئ من وراء الغيب لابد أن يعيدها إلى الحظيرة، ويعطفَها إلى حقيقة المصحف عطفاً، حتى تكون بجانبه في معركته، تقاتل تحت رايته، مستظلة بظله، مستضيئة بنوره في شعاب الحياة كلها وما ذلك على الله بعزيز.

وإنا ـ في غير إغراق في التفاؤل ـ نرى أن مما يبشر بالخير أن يكون الذين يثورون للقرآن، وتلهب مشاعرهم جريمة الحرم الإبراهيمي في مواجهة السلاح والطغيان.. هم من الشباب الواعين المثقفين.. دليل الأصالة وسلامة الفطرة.. وصدق الانتماء إلى هذه الأمة إن شاء الله.. فإذا حزب الأمر رأيت أولئك الذين كانوا ضحايا الغفلة حيناً من الدهر.. استيقظت في أنفسهم مشاعر بدر وحطين.. وجرت في دمائهم معاني القادسية واليرموك.. فرفعوا عقيرتهم مستنكرين.. وفتحوا صدورهم للموت.. وأسلموا جلودهم النقية للجلادين؛ كل ذلك في سبيل هذا القرآن العظيم.

وفي ذلك أبلغ رد على كل الذين يحلو لهم أن يتلمظوا تلمظ الأفعى، ليقولوا إن الذين يتحركون للقرآن والدين هم من دهماء الناس وغوغائها.. ألا فليعلم هؤلاء أن الزمان قد استدار، وأن الحقيقة هي الحقيقة.. وأن الأمة ـ طال الزمان أو قصر، ممثلة في أجيالها الصاعدة ـ لابد عائدة ـ بعون الله ـ إلى

مرابع الهدى والقوة . . فليس كالتحدي موريا للزناد . . موقظاً من الغفلة . . وأنها مصغية بالقلب والعقل إلى التكبير يهل به رجال بدر واليرموك . نعم . . لا بد أنها عائدة - إن شاء الله والعود أحمد - إلى الظل الظليل في كنف الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . . الكتاب الذي جعل الله منه معجزة خالدة على الدهر ، وتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله . . وأقامه حجة على خلقه ، ودليل صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - في رسالته . . واتخذ منه سجل الهداية عقيدة وشريعة وأخلاقاً واعتباراً بالماضين في بيان محكم ينقطع دونه كل بيان . . فكان المرجع عند الاختلاف ، والحكم العدل عند الافتراق . . وحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، من سلكه فاز بسعادة الدارين ، ومن أعرض عنه خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

ألا وإن الأمة إن فعلت ذلك . . مستأنفة طريقها . . مستعلية على كل ما يلقى على دروبها من معوقات ينتسب أصحابها إلى حمالة الحطب . . إنها إن فعلت ذلك : كانت جديرة بالتكريم الإلهي حين أراد أن تكون على نسب متصل بأولئك الذين حمّلوا القرآن فحملوه ، وطوقهم الوحي بالأمانة الغالية فأدوها نصرة للقرآن قلباً وعقلاً وساعداً وكل ما يملكه امرؤ خالطت قلبه بشاشة الإيمان . . تلكم هي منازل البررة الذين باتوا في حسن استجابتهم للوحي كأنهم قرآن ناطق يمشي على وجه الأرض ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ .

وفي خاتمة المطاف: إن واحداً من الردود على ما تجترح يهود على أرض الطهر والقداسة، وما تصنعه بهذا القرآن.. هو أن تستذكر الأمة قرآنها بكل دلالة الاستذكار مجدداً، وتصفع وجه العدو بأوبة فيها كل الوعي والأصالة ينبتان سامقين على أرض العقيدة وحب الجهاد والاستشهاد.. والترفع عن كل الفقاعات من هنا وهناك.. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً..